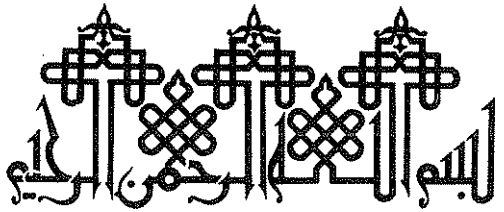

أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب سهم كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عمدة كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي بيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين

حول تفسير

سورة الكوثر

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح

حلب - أنيرل

حُقُوق الطَّبعِ محفُوظَة للمؤلِّف

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

مطبعة الصباح
دمشق - هاتف ٢٢٢١٥١٠
عدد النسخ (١٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلينا معهم بفضلك يا رب العالمين آمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿ إِنَّآ ﴾ إعلاماً بالعظمة والعزة الإلهية، وإعلاناً بالمنة الكبرى على رسوله بالعطية صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً أبداً.

وحُقَّ لرب العالمين أن يتعالى، ويعظم نفسه، ويمجد نفسه، فإنَّ العزة والكبرياء والعظمة هي صفات له ذاتية، لأنه المتصف ـ وحده سبحانه ـ بجميع الكمالات التي لا نهاية لها، على وجه لا يحيط بعلمها إلا هو سبحانه.

فهو سبحانه يُمجد نفسه، ويعظم نفسه؛ ويثني على نفسه؛ وحق له ذلك.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم».

فرجف برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنبر حتى قلنا: ليخرنّ به.

وفي رواية لمسلم: قال ابن عمر رضي الله عنهما: حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أَسَاقِطٌ هو برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي رواية البزار: فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ـ ثلاث مرات[1].

نعم لقد خشع المنبر، وأخذته الخشية من عظمة الله تعالى وجلاله، متأثراً بمواعظ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

كما قال تعالى: ـ في الحجارة ـ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فالكبرياء والعظمة والعزة، هي صفات ذاتية لله وحده.

---

(١) انظر (تفسير) ابن كثير و(الدر المنثور).

روى مسلم وغيره، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله عز وجل: العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته».

وروى أبو داود وابن ماجه وابن حبان في (صحيحه) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه.وعلى آله وسلم: «قال الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».

فهو سبحانه يُمجد نفسه، ويعظم نفسه، كما أنّه سبحانه يثني على نفسه، ولا يستطيع أحد من خلق الله تعالى أن يحصي ثناءً عليه، ويحيط بذلك، وهو كما أثنى على نفسه جل وعلا.

جاء في الحديث الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: فَقدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على قدميه ـ وهو في المسجد ـ وهما منصوبتان[1] وهو يقول: «اللهم إنيِّ أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الليل فصلى، فأطال السجود حتى ظننت أَنّه قد قُبض، قالت: فسمعته يقول في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

---

(١) أي: قدماه الشريفتين منصوبتان كما هو هيئة القدمين في السجود.

ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أي: بعد فراغه من الصلاة ـ: «أتدرين أيَّ ليلة هذه»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هذه ليلة النصف من شعبان، إنَّ الله تعالى يَطَّلع على عباده في ليلة النصف من شعبان، فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويُؤخر أهل الحقد كما هم»[1]

أي: فحقدهم على بعضهم يحرمهم خير تلك الليلة ورحمتها.

فالله تعالى هو يثني على نفسه، وحُقَّ له ذلك جل وعلا.

وإنَّ أعظم خلق الله تعالى ثناءً على الله تعالى، وتعظيماً لله تعالى، وتمجيداً له، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إمام الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإن الثناء على الله تعالى والتمجيد له سبحانه، ذلك على حسب العلم بالله تعالى؛ وأسمائه وكمالاته، وإنَّ أعلم الخلق بالله تعالى هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الذي أعلن ذلك فقال: «أما والله إني لأعلمكم بالله وأشدُّكم له خشية».

ولذلك كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يثني على الله تعالى، ويمجده في جميع أحيانه وأحواله، ، وفي صباحه ومسائه، وفي خُطبه ومجالسه، وفي صلواته وتهجداته، صلى الله عليه وعلى آله وسلم،

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه البيهقي من طريق العلاء بن الحارث عن عائشة رضي الله عنها، وقال: هذا مرسل جيد. اهـ

ويأتي بصيغ جامعة لأنواع الثناء والمجد، كما جاء في الأحاديث عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإنَّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أُوتي جوامع الكلم، ولأنَّه ما ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحي يوحىٰ.

قال الله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ الآية.

فالكتاب هو القرآن الكريم، والحكمة هي السنة النبوية، المشتملة على أقواله وأفعاله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعظم من أثنىٰ على الله تعالى من خلق الله تعالى، كما أنّه أعظم الخلق ثناءً على الله تعالى في جميع العوالم الآتية، كما جاء في حديث الشفاعة المتفق عليه، وفيه قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غَفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لَنَا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه.

فأنطلق إلى تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليَّ من محامده، وحسن الثناء عليه؛ شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع.

فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب أمتي يا رب أمتي يا رب» إلى تمام الحديث.

وهذه إحدى روايات أحاديث الشفاعة ـ كما في (تيسير الوصول) نقلاً عن الشيخين والترمذي.

فأعظم الخلق ثناء على الله تعالى في جميع العوالم هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً، في كل لمحة ونفس

عدد ما وسعه علم الله تعالى العظيم.

ويرحم الله تعالى القائل في دعائه ومُناجاته ربه تعالى:

إلى بابك العالي مددت يد الرجا ومَن جاء ذاك الباب لا يختشي الردىٰ
سألتك يا الله مستشفعاً بمن ضيا وجهه الوضّاء يبرق في الدُّجى

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، وعلينا معهم أجمعين.

قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ فيه دليل على عظمة المُعطي، وهو الله تعالى، وفيه دليل على كرامة المُعطَىٰ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفيه دليل على شرف العطية وهي الكوثر، وأن هذه العطية خاصة به صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لم ينلها أَحَدٌ غيره كما دلت عليه الكاف.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: الكوثر فوعل من الكثرة، مثل نوفل من النفل، والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر كوثراً. اهـ

فهو صيغة مبالغه يدل على الكثرة.

وقد جاء في الأحاديث عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بيان المراد بالكوثر في الآية الكريمة:

روى مسلم في (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه قال: بينا

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المسجد إذ أَغْفى إغفاءة[1]، ثم رفع رأسه ضاحكاً.

فقيل: ما أضحكك يا رسول الله؟

قال: «نزلتْ عليّ سورة آنفاً فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها».

قال: «أتدرون ما الكوثر»؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «إنَّه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير».

وفي رواية لمسلم: «إنَّه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة، وهو حوض، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فَيُخْتَلج[2] العبد منهم فأقول: ربِّ إنّه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»[3].

فذلك النهر العظيم هو في الجنة يُسمى كوثراً، عليه خير كثير، لا يعلم قدره إلا الله تعالى، ومن هذا الخير الكثير تتدفق الخيرات والبركات على جميع أهل الجنة، على حسب مراتبهم، ويَفيض عليهم

---

(١) المراد بالإغفاءة هنا الحالة التي كانت تعتريه صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين ينزل عليه الوحي فلا يكلمهم ولا يكلمونه حتى ينقضي الوحي.

(٢) أي: ينتزع ويقتطع عن الوصول إلى الحوض الشريف.

(٣) وروى البخاري نحوه، ورواه أصحاب السنن، والإمام أحمد بهذا اللفظ انظر (تفسير) ابن كثير و(شرح المواهب).